خطبة الجمعة
د/ مسعود عرابي

صوت الدعاة
WWW.DOAAH.COM
رئيس التحرير
د/ أحمد رمضان
مدير الموقع
أ/ محمد القطاوى

www.facebook.com/aldo3ah
www.youtube.com/@doaah

سننُ اللّهِ الكونيةُ في القـــــرآنِ الكريمِ

الحمدُ للهِ الذي امتنَّ على عبادِه بنبيِّه المرسلِ، وَكِتَابِهِ الْمُنَزَّلِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بين يديهولا مِن خلفِه تنويلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ، حتى اتســـعَ على أهلِ الأفكارِ طَرِيقُ الِاعْتِبَارِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْقَصَــصِ وَالْأَخْبَارِ، وَأَتَضَــحَ بِهِ سُــلُوكُ الْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ، وَالصِّــرَاطِ الْمُسْــتَقِيمِ بِمَا فَصَّــلَ فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، فَهُوَ الضِّــيَاءُ وَالنُّورُ، والنَّجَاةُ مِنَ الْغُرُورِ، والشِفَاءُ لِمَا فِي الصُّدُورِ.

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُوحدَهُ لا شريكَ له ..وأشهدُ أنّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُه، أخرجَ به الناسَ مِن ضــلالاتِ الشركِ والطغيانِ إلى نورِ الإيمانِ، ففي الصــحيحين مِن حديثِ عائشةَرضي الله عنها، قال: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ...، ثُم انْصَــرَفَ، وَقَدْ انْجَلَتِ الشَّــمْسُ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَحَمِدَ اللهوَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُم قال: « إِنَّ الشَّــمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَخْسِــفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍوَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُم ذَلِكَ، فَادْعُوا اللهَ، وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا ».

ثُم قَالَ: « يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ».

وبعـد،،،،

لقد اقتضَى عدلُ اللهِ ـ عزّ وجل ـ في الخلقِ؛ ألّا يعذبَهُم حتى يجليَ لهم الحقائقَ، ويقيمَ عليهم الحجةَ، ويقطعَ عنهم الأعذارَ، فأرسلَ لهم الرسلَ مبشرين ومنذرين، وأيدهُم بالمعجزاتِ، واقتضــى عدلُه سبحانه وتعالى أنْ تكونَ المعجزاتُ ظاهرةً مِن جنسِ ما برعَ

فيه أقوامُهم، وتملكُوا زمامَهُ؛ ليثبتَ لذاتِهِ سبحانه وتعالى القوةَ المطلقةَ على الخلقِ، فيكونَ ذلك دافعًا لهم للتصديق، واستشعارًا منهم بالعجزِ أمامَ القوةِ المطلقةِ الخارقةِ لعاداتِ البشرِ، وقد بعثَ رسولَهُ ﷺ مِن أنبلِ العربِ نسبًا، وعصمَهُ مِن مسلوئِ الأخلاقِ والذلِ، حتى لقبوهُ قبلَ بعثتِهِ ﷺ بالصادقِ الأمينِ، فكلامُهُ عندهُم صدقٌ لا يحملُ الكذبَ، ويدهُ عندهُم ﷺ يدُ أمانةٍ تحفظُ كلَّ ما هو نفيسٌ، وكانت معجزتهُ خالدةً باقيةً على مرّ العصورِ والأزمانِ، وهو القرآنُ الكريمُ: كلامُ اللهِ تعالى المعجزُ المنزّلُ على خاتمِ الأنبياءِ والمرسلين سيدِنا مُحمدٍ ﷺ بواسطةِ أمينِ الوحيِ جبريل ـــ عليه السلام ـــ المنقولُ إلينَا بالتواترِ، المتعبدُ بتلاوتِهِ، المبدوءُ بسورةِ الفاتحةِ، والمختتمُ بسورةِ الناسِ، والمتحدَّي بأقصرِ سورةٍ منهُ.

وقد أودعَ اللهُ ـــ عز وجل ـــ هذا الكتابَ العزيزَ العديدَ مِن الأسرارِ، والكنوزِ التي تناسبُ كلَّ عصرٍ ومصرٍ، وتتجلي يومًا بعدَ يومٍ مع الاكتشافاتِ العلميةِ الحديثةِ، مِمّا يعمقُ قضيةَ الإيمانِ في النفوسِ، ويقيمُ الحجةَ على المنكرين، ويخرسُ ألسنةَ كلِّ أفاكٍ أثيمٍ يسمعُ آياتِ اللهِ تُتلَى عليه ثُمّ يُصرُّ على العنادِ لها والإعراضِ عنها، يقولُ القاضِي عياض: إذا تأملتَ هذه الآياتِ وأشباهَا، تحققتَ مِن إيجازِ ألفاظِهَا، وكثرةِ معانيهَا، وديباجةِ عبارتِها، وحسنِ تأليفِ حروفِهَا، وتلاؤمِ كلمِهَا، وأنَّ تحتَ كلِّ لفظةٍ منها جملاً كثيرةً، وفصولًا جمةً، وعلومًا زواخرَ ملئتْ الدواوين، وكثرتْ المقالاتُ في المستنبطاتِ عنها. وقد حكى الأصمعيُّ، أنه سمعَ كلامَ جاريةٍ، فقالَ لها: قاتلكِ اللهُ ما أفصحَك. فقالت: أو تعدّ هذا فصاحة، بعد قولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِ مُوسى أَنْ أَرْضِعيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَني إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. [القصص: 7]، فجمعَ اللهُ في آيةٍ واحدةٍ بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين. [شروح القسطلاني للبخاري].

وشهَدَ العربُ بفصاحتِهِ منذُ الوهلةِ الأولَى، وهم أهلُ فصاحةٍ وبيانٍ، ومازالت أقلامُ المنصفين لا تجفُّ، وألسنتُهم لا تقفُ عن الثناءِ عليه في كلِّ بقاعِ الدنيا، وأروعِ مِن كتبٍ في العصـــرِ الحديثِ عن القرآنِ، الطبيبُ الفرنســـي، موريس بوكاي، فيقولُ: لقد قمتُ بواســةِ القرآنِ الكريمِ، وذلك دونَ أيِّ فكرٍ مســبقٍ، وبموضــوعيةٍ تامةٍ، باحثًا عن درجةِ اتفاقِ نصِّ القرآنِ الكريمِ مع معطياتِ العلمِ الحديثِ، وكنتُ أعرفُ قبلُ هذه الواسةِ، وعن طريقِ الترجماتِ، أنّ القرآنَ يذكرُ أنواعًا كثيرةً مِن الظواهرِ الطبيعيةِ، ولكن معرفتِي كانت وجيزةً، وبفضـــلِ الواســـةِ الواعيةِ للنصِّ العربِي اســـتطعتُ أنْ أحقق قائمةً أدركتُ بعدَ الانتهاءِ منها أنّ القرآنَ لا يحتوي على أيةِ مقولةٍ قابلةٍ للنقضِ مِن وجهةِ نظرِ العلمِ في العصرِ الحديثِ. [**علماء من الغرب أنصفو الإسلام**].

والآياتُ الكونيةُ: هي الآياتُ المنسوبةُ إلى الكونِ، هو خلقُ اللهِ تعالى، المتفرُّد بِه، الدالُّ على عظمتِه، خلَقَهُ بجلالِ قدرتِه بكُنْ فكان هذا الكونُ الفســـيحُ، وهي تلك الآياتُ التي تشيرُ إلى خلقِ السمواتِ والأرضِ، والجبالِ، والسهولِ، والأنهارِ، والشمسِ، والقمرِ، والنباتِ، والحيوانِ، والجمادِ، وخلقِ الإنســـانِ، وآياتِ اللهِ عزّ وجلّ في الآفاقِ، وما فيهمَا وما بينهمَا مِن سائرِ المخلوقاتِ.

ولم ترِدْ هذه الآياتُ الجليلةُ القدرِ، العظيمةُ النفعِ، الدالةُ على طلاقةِ قدرةِ الخالقِ العظيمِ، لمجردِ الذكرِ، أو مِن أجلِ بيانِها للناسِ ودلالتِهم عليها ابتداءً، وإنّما هي سِـــيقتْ مسأقا تابعًا للغرضِ والهدفِ الذي ذُكرتْ في ثناياه، مِن الاستدلالِ بها على قضايا كبرى؛ كالألوهيةِ والنبواتِ والبعثِ، ومِن هذه الآياتِ الكريمةِ، قولُه تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ ﴾. [**الأنعام، 125**]. قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ -رضي الله عنه- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الصَّدْرَ انْفَسَحَ** ». فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ

يُعْرَفُ؟ قَالَ: « نَعَمْ، اَلتَّجَافِي عَنْ دَارِ اَلْغُرُورِ، وَاَلْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ اَلْخُلُودِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ ». [**المستدرك للحاكم، شعب الإيمان للبيهقي**].

وهو ما كشف عنه العلم الحديثُ، فالقضيةُ تتعلقُ بالصعودِ إلى الأجواءِ العليا، حيثُ وُجِد أنّ الإنسانَ تتناقصُ قدرتُه على التنفسِ الطبيعي درجةً بعَد درجةٍ كلَما تصاعَد إلى السماءِ، وسببُ ذلك انخفاضُ الضغطِ الجزئي للأكسجين في طبقاتِ الجوِّ العليا، وقد جعلَ أصحابُ الإعجازِ العلمِي هذه الظاهرةَ الكونيةَ تفسيرًا للحرجِ الذي يصيبُ الكافرَ بسببِ عدمِ قدرتِه على الإيمانِ، وجعلُوا التشبيه يعودُ إلى الضيقِ والحرجِ، فضيقُ صدرِ الكافرِ المعرضِ عن الحقِّ وعن قَبولِ الإيمانِ كحالِ الذي يتصعَّدُ في السماءِ، وذكَرُوا وجهَ الشبهِ، وهو الصفةُ المشتركةُ بينهما ضيقًا وحرجًا، وجاءَ بأداةِ التشبيه كأن؛ ليقعَ بعدَها المشبهُ في صورةٍ حسيةٍ واضحةٍ. [**الإعجاز العلمي إلى أين**].

هذا بجانبِ العديدِ مِن الآياتِ التي تشيرُ إلى قضيةِ خلقِ السمواتِ، وهي رغم ارتفاعِها، واتساعِ مساحتِها، رُفعتْ بغيرِ عمدٍ، أو بعمدٍ غيرِ مرئيةٍ للخلقِ، ولا تعيقُ حركةَ الحياةِ، وكلاهُمَا إعجازٌ وقوةٌ لا يتصورُها العقلُ مهما بلغَ مِن الذكاءِ، فلا يملكُ الإنسانُ إلّا أنْ يقولَ: سبحانَ مَن هذا خلقُه! وكذلك الحالُ بالنسبةِ لمراحلِ حملِ الجنين، وخلقِ النباتِ والحيوانِ وكافةِ المخلوقاتِ التي تشيرُ إلى قوةِ الحقِّ على الخلقِ، وأنه لا يتشابه مع مخلوقاتِه في شيءٍ سبحانُه مِن إلهٍ تحيرتْ العقولُ مِن بديعِ حكمتِه، وخضعتْ الألبابُ لرفيعِ عظمتِه، ثم استحضرَ لهم عالمَ الغيبِ، وقضيةَ النشورِ بعَد الموتِ في تصويرٍ محسوسٍ كي يستوعبُوا الحدثَ العظيمَ، ويكونُوا للإيمانِ به على أتمِ استعدادٍ، فقالَ تعالى: ﴿**وَهُوَ اَلَّذِي يُرْسِلُ اَلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ اَلْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ اَلثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ اَلْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾. [الأعراف، 57].

أي: فأخرجنا منه الماء فأخرجنا به أي: بالماءِ مِن كلِ الثمراتِ أي: مِن جميعِ أنواعِها. قولُه كذلك نخرُج الموتى أي: مثل ذلك الإخراجِ، وهو إخراجُ الثمراتِ نخرُج الموتى مِن القبورِ يومَ حشرِهم لعلكُم تذكرُون، فاستحضرَ صورَ الغائبِ عن المشاهدِ وهو البعثُ بعدَ الموتِ، بالمشاهدِ المحسوسِ وهو سوقُ الرياحِ للسحابِ، حتى تصلَ إلى الأرضِ الجدباءِ التي أرادَ اللهُ لها الحياةَ، فيأذنُ للمطرِ بالنزولِ، فإذا ما خالطَ التربةَ الخصبةَ أنبتتْ مِن الزروعِ والثمارِ ما لذَّ وطابَ، هكذا يكونُ البعثُ بعدَ المماتِ، ثم بيّنَ الحقُّ سبحانه أنّ الكونَ وما فيه مِن مخلوقاتٍ عجزتْ البشرُ عن تصورِها فضلًا عن أنْ يحويَها العلمُ أو تبلغَها. [**فتح القدير للشوكاني**]. وقد أودعَ الحقُّ سبحانه وتعالى هذه الآياتِ في الكونِ، أخرجَ ابنُ حبان وغيرُه، عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ، عَلَى عَائِشَةَ، قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: « يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي » قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا، ثم تلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الألْبابِ** ﴾. [**آل عمران،190**]. أي: دلالاتٌ واضحاتٌ على وجودِ الصانعِ، وعلمِه، وكمالِ قدرتِه لذوي العقولِ الخالصةِ الصافيةِ، الذين يفتحون بصائرَهم للنظرِ والاستدلالِ والاعتبارِ، لا ينظرون إليها نظرَ البهائمِ، غافلين عمّا فيها مِن عجائبِ مخلوقاتِه وغرائبِ مبدعاتِه، وقد وردَ ويلٌ لمَن قرأَها ولم يتفكرْ فيها، فإنّ فيها لطائفَ عظيمةً لمَن تأملَ في مبانيَها وظهرَ له بعضُ معانيَها. [**مرعاة المفاتيح**].

اعلمُوا أحبتي في اللهِ أنَّ قضـــيةَ التشـــكيكِ تحدثَ عنها القرآنُ الكريمُ، وبيّن أنه لا يخلوا أهلُ زمنٍ مِن الأزمانِ إلّا وفيه أهلُ الضلال، والعجيبُ أنّ الحقَّ سبحانه وتعالى بيّنَ أنهم قد يصـــلُوا إلى حدٍّ أنهم يقتنعونَ بما يعملون، وأنهم في خدمةِ هذا الدينِ، فعلى كلِّ مســـلمٍ أنْ يتجنبَ مواطنَ الفتنِ، وأهلَ الأهواءِ، فعند أحمدَ في مســـنِده، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ وَقَالَ: « أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي ».

قَالَ أَبُو قِلَابَةَ التابعي الفقيهة المحدث الثقة: « لَا تُجَالِسُـــوا أَهْلَ الْأَهْوَاءِ وَلَا تُجَادِلُوهُمْ، فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَغْمِسُـوكُمْ فِي ضَـــلَالَتِهِمْ، أَوْ يَلْبِسُـوا عَلَيْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ ». [**سـنن الدارمي**].

اللهم جنبَنا الفتَن ما ظهَر منها وما بطن ..واجعل بلدَنا مصـرَ أمنًا أمانًا وسـائرَ بلادِ المسلمين، ووفقْ ولاةَ أمورِنَا إلى ما فيه صلاحُ البلادِ والعبادِ..واجعلنا هداةً مهتدين!

بقلم/ مسعود عوابي .. عضـو هيئة تدريس بجامعة الأزهـــر .. وخطيب مكافأة.